

القديس يوحنا السلمي

(١) نبذة عن حياته:

هُوَ المَعْرُوفُ بِيوحَنَّا السُّلَمِيِّ (كَلِيمَاكُوس) نَسَبَةً إِلَى كِتَابِهِ "سُلْمُ السَّمَاءِ أَوْ دَرَجَاتِ الفُضَائِلِ". وُلِدَ بِفِلَسْطِينَ سَنَةَ ٦٢٥ م. وَتَرَهَّبَ فِي دَيْرٍ بِطُورِ سِينَاءٍ وَهُوَ ابْنُ سِتِّ عَشْرَةَ سَنَةً. وَفِي سَنِّ العَشْرِينَ، تَوَحَّدَ فِي قَلَايَةِ مَنفُودَةٍ، وَمَكَثَ أَرْبَعِينَ سَنَةً يُمَارِسُ التَّقَشُّفَاتِ. وَفِي خِلَالِ هَذِهِ المَدَّةِ قَامَ بِرِحْلَةٍ إِلَى مِصْرَ، زَارَ خِلَالَهَا دَيْرًا فِي مَنطِقَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ، يَذْكَرُهُ مَطَوَّلًا فِي المَقَالَتَيْنِ الرَّابِعَةِ وَالخَامِسَةِ.

وَكَانَ فِي خُلُوتِهِ يَسْتَقْبِلُ مَنْ يَأْتُونَهُ لِلاِسْتِرْشَادِ مِنْ رَهْبَانٍ وَعِلْمَانِيَّينَ، وَيَزُورُ المَرَضَى المَتَوَحِّدِينَ مَتَقَدِّدًا. وَقَدْ شَفَى رَاهِبًا اسْمُهُ إِسْحَقُ مِنْ تَجْرِبَةِ شَيْطَانِيَّةٍ مَزْمَنَةٍ وَأَنْقَذَ تَلْمِيذَهُ مُوسَى مِنْ المَوْتِ.

وَبِسَبَبِ هَذَا النِّشَاطِ قَامَ بَعْضُ الرَهْبَانِ عَنِ حَسَدٍ وَغَيْرَةٍ بِنَعْتِهِ بِالثَّرَارِ، فَصَمَتَ صَمْتًا كَلِيًّا مَدَّةَ سَنَةٍ كَامِلَةٍ إِلَى أَنْ عَادَ ثَالِبُوهُ وَتَوَسَّلُوا إِلَيْهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ لِأَجْلِ خِلَاصِ النُّفُوسِ. فِي نِهَآيَةِ الأَرْبَعِينَ سَنَةِ الَّتِي قَضَاهَا مَتَوَحِّدًا عِيَّنَ رَئِيسًا لِرَهْبَانِ طُورِ سِينَاءٍ وَمَدْبِرًا لِحَيَاتِهِمُ الرُّوحِيَّةِ. وَبَعْدَ أَرْبَعِ سِنَوَاتٍ تَرَكَ الرِّئَاسَةَ وَعَادَ إِلَى خُلُوتِهِ لِيَسْتَعِدَّ لِلْمَوْتِ. رَقَدَ فِي سَنِّ الثَّمَانِينَ.

أَمَّا كِتَابُهُ الشَّهِيرُ "سُلْمُ السَّمَاءِ"، فَقَدْ وَضَعَهُ وَهُوَ شَيْخٌ مَتَقَدِّمٌ فِي السَّنِّ، وَتُرُودًا عِنْدَ طَلَبِ الأَبِ يُوحَنَّا رَئِيسِ دَيْرِ رِيثُو. وَيُعْتَبَرُ مِنْ أَهَمِّ الكُتُبِ فِي الأَدَبِ الرَّهْبَانِيِّ. تَعَيَّدَ لَهُ الكَنِيسَةُ الأَرْتُوذُكْسِيَّةُ فِي ٣٠ آذَارَ، يَوْمَ وَفَاتِهِ، وَفِي الأَحَدِ الرَّابِعِ مِنَ الصُّومِ الكَبِيرِ.

(٢) شَخْصِيَّتُهُ:

يُسْتَشْفَى مِنْ كِتَابِهِ أَنَّهُ كَانَ ذَا شَخْصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ حِرَّةٍ. لَقَدْ شَهِدَ وَسَمِعَ فِي حَيَاتِهِ أُمُورًا كَثِيرًا فَيُروِيهَا وَيَقِيمُهَا تَقْيِيمًا شَخْصِيًّا غَيْرَ آبَةٍ بِمُخَالَفَاتِهِ لِلآرَاءِ السَّائِدَةِ أحيانًا. وَيَبْدُو جَلِيًّا أَنَّهُ مُطَّلَعٌ كَلِّ الاطِّلَاعِ عَلَى أَحْوَالِ النَّاسِ العَائِشِينَ فِي وَسْطِ العَالَمِ وَعَلَى آرَائِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ

ونفسيتهم، وأنه يعرف النفس البشرية معرفة عميقة ويحللها تحليلاً دقيقاً جديراً بعلماء النفس اليوم. وهو مستعدٌ دائماً للإقرار بضعفه.

وبصورةٍ عامّةٍ يُستنتج من كامل مؤلفه أنه متّزن الشخصيةً سليماً يترك دائماً مكاناً للاعتدال، على ما يتّصف به من جدّ وصرامة، ممّا يجعله من المعلمين الروحانيين الأكثر إنسانيةً.

٣) مقتطفات من أقواله:

أ- في الزهد:

- مَنْ أَحَبَّ الرَّبَّ بِالْحَقِيقَةِ، وَسَعَى حَقًّا لِيَحْظِيَ بِالْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، وَاقْتَنَى أَلْمًا حَقِيقِيًّا مِنْ أَجْلِ زَلَّاتِهِ، وَحَصَلَ حَقًّا عَلَى ذِكْرِ الْعَذَابِ وَالذِّينُونَ الْأَبَدِيَّةِ، وَوَعَى حَقًّا خَوْفَ الْخُرُوجِ (الموت)، لَا يَعُودُ يَحِبُّ أَوْ يَفَكِّرُ أَوْ يَهْتَمُّ، لَا بِأَمْوَالٍ وَلَا بِمَقْتَنِيَّاتٍ، وَلَا بِأَهْلٍ وَلَا بِمَجْدٍ دُنْيَوِيٍّ، لَا بِأَصْدِقَاءٍ وَلَا بِإِخْوَةٍ وَلَا بِأَيِّ شَيْءٍ آخَرَ أَرْضِيَّ إِطْلَاقًا.

ب - في الأهواء:

- إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَصْنَعْ الشَّرَّ وَلَا خَلَقَهُ. فَقَدْ انْخَدَعَ قَوْمٌ بِزَعْمِهِمْ أَنَّ بَعْضَ الْأَهْوَاءِ طَبِيعِيَّةٌ فِي النَّفْسِ، وَخَفِيَ عَلَيْهِمْ أَنَّنَا نَحْنُ الَّذِينَ قَدْ حَوَّلْنَا خَوَاصَّ الطَّبِيعَةِ الْأَسَاسِيَّةِ إِلَى أَهْوَاءٍ. فَإِنَّ إِمْكَانَ التَّنَاسُلِ، مِثْلًا، أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِيهَا، لَكِنَّا نَحْنُ حَوَّلْنَاهُ إِلَى فِسْقٍ. وَالغَيْظُ ضِدُّ الْأَفْعَى طَبِيعِيٌّ أَيْضًا، لَكِنَّا اتَّخَذْنَاهُ وَسِيلَةً ضِدَّ الْقَرِيبِ. وَالغَيْرَةُ لِعَمَلِ الْفَضِيلَةِ طَبِيعِيَّةٌ أَيْضًا، لَكِنَّا اتَّخَذْنَاهَا لِلتَّنَافُسِ فِي الشَّرِّ. مَحَبَّةُ الْمَجْدِ طَبِيعِيَّةٌ فِي النَّفْسِ، وَلَكِنْ نَحْوَ الْعُلُوبَاتِ. وَالتَّكْبُرُ طَبِيعِيٌّ، وَلَكِنْ عَلَى الشَّيَاطِينِ. وَكَذَلِكَ الْفَرَحُ، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ الرَّبِّ وَعَمَلِ الصَّلَاحِ مَعَ الْقَرِيبِ. وَنَلْنَا الْحَقْدَ، وَلَكِنْ عَلَى أَعْدَاءِ النَّفْسِ. وَنَلْنَا رَغْبَةَ الطَّعَامِ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِلتَّبْذِيرِ وَالِدَاعَارَةِ.

ج- في الصلاة:

- الصلاة في كُنْهها هي اجتماع واتحاد الإنسان بالله. وفي فعلها هي ثبات العالم، مصالحة مع الله، وأمّ الدموع، وابنة لها في الوقت ذاته. وهي اغتفار الخطايا، جسر للنجاة من التجارب، سور لصدّ الشدائد، محقّ للحروب، عمل الملائكة، غذاء غير المتجسدين جميعاً، سرور المستقبل، شغل لا محدود، ينبوع الفضائل، مولدة المواهب، تقدّم لا منظور، غذاء النفس، استتارة الدهن، فأس تقطع اليأس، دليل الرجاء، زوال الحزن، غنى الرهبان، كنز الهادين، تسكين الغضب، مرآة النجاح، مظهره الدرجات، بيان الحالة، إعلان المستقبلات، علامة المجد. والصلاة بالنسبة للمصلي حقاً هي محكمة وقضاء ومثول أمام عرش الرب قبل الحكم الآتي.

- داوم الجهاد مع الفكر، وكلّما شرد منك هنا وهناك رُدّه واجمعه. والله لا يتطلّب من الذين لا زالوا تحت الطاعة أن يقدموا صلاة خالية من كلّ شرود أو تشتت. فلا تيأس حينما ينخطف منك الفكر ويشرد بعيداً، بل اثبت واستدعه بالحاج وبلا انقطاع ليعود إلى ذاته. أمّا انتباه العقل التام الذي لا ينقطع قطّ عن تمجيد الله، فهو يليق بالملائكة فقط.

- إذا وقفنا للصلاة برزت لنا أفكار كثيرة، أشنعها فكر التجديف الذي لا يستطيع الإنسان في كثير من الأوقات أن يبوح به. فلذلك شاخ هذا الفكر مع أناس كثيرين. فإذا استكملنا الصلاة ذهب الفكر المارد إلى حاله. ومعروف أنّ هذا الفكر يحارب من يحاربه، حتّى أنّ هذا الشقيّ يفترى على الطبيعة الإلهية، ويتكلّم فينا بكلام أشدّ قباحةً وافتراءً لكي نهمل صلاتنا ونياس من أنفسنا ونمتنع عن التقدّم للأسرار المقدّسة. ومن شدة ضغط هذه الأفكار تذوب أحسام الناس من الغمّ ويشكّكهم في عبادتهم.

فمن يؤذيه هذا الروح الشرير ويشاء أن يتخلّص منه، فليضغ في نفسه أول كلّ شيء أنّ نفسه ليس هي علة هذه الأفكار، وأنّه ليس هو المتكلّم بكلام هذه التجاديف والأفكار الخبيثة، بل هي من صنع الشيطان مباشرة. ذلك النّجس الوقح الذي تقدّم للربّ يسوع المسيح تبارك اسمه، وقال له بوقاحة: أعطيك ممالك العالم إذا خررت وسجدت لي. وقد علّمنا السيّد الربّ كيف نرُدّ عليه قائلين: اذهب يا شيطان، لأنّه مكتوب: للربّ الهك تسجد وإياه وحده تعبد. ليرجع تجديفك على رأسك ويرتدّ سخطك على هامتك. لينتهزك الربّ يا شيطان.

وبما أن هذا الفكر من الشيطان، فيليق بنا أن نزدري به ولا نلتفت إلى محاربته لئلا يشنّد علينا ويُورد علينا المزيد من أفكار الافتراء والتجديف.

- الذين تعلّموا كيف يصلّون بعقولٍ صاحية، هؤلاء يكلمون ربّنا وقوفًا بحضرته، كمن يكلم الملك في أذنه. والذين يصلّون بلسانهم كمن يتوسّلون إلى الملك خارجًا، من وسط ألوف الشعب والرعيّة.

- من يريد أن يرصد عقله ويضبط أفكاره، يكون كالرقيب، يسهر ليعرف من هو السارق وكيف يدخلون وكيف يسرقون عنقيد الثمر، ومتى يأتون. يلزم للرقيب الهدوء والسهر والشجاعة وعدم الضجر ودوام الصلّاة، وألا يستريح حتّى يضبط السارق.

- القراءة تضيء العقل وتجمعه ليس جمعاً يسيراً، لأنّها أقوالُ الرّوح القدس. فهي تقوّم الذين يتلونها، خصوصاً متى كانوا يتلونها بفهمٍ وعمل.

- إبتداء الصلّاة: هواجس كثيرة وعراكٌ مع الفكر وطرد الأفكار الغريبة. وتوسّط التقدّم في الصلّاة: تمييز معاني النصوص التي نتلوها. وتمام الصلّاة: اختطاف العقل إلى ربّنا والابتهاج الكامل بالله، وهذا من نصيب المقيمين في الرّفقة الرهبانيّة.

- كما يكون مرفوضاً عند الملك الأرضيّ من يكون واقفاً بحضرته ويحوّل وجهه عنه ليتحدّث مع أعدائه، هكذا ربّنا يرفض من يكون واقفاً في صلاته وهو منهمكٌ بأفكارٍ خبيثة.

د - في الوداعة والتواضع:

- الوداعة والتواضع هما الصخرة الموضوعّة على شاطئ بحر الغضب، التي عليها تتكسّر أمواج ذلك البحر الهائج، وهي ثابتة كالطود لا تتحرّك.

- الوداعة مفتاحُ بابِ المعرفة، لأنّ "الله يعلم الوديعين طرقةً".

- في قلوبِ الودعاءِ يجلسُ الله ليحكم، والنفس الممنزعة هي مجلسٌ لإبليس وجنوده.

- ليس من يدّم ذاته ويلومها هو المتّضع، لأنّه من الذي لا يستطيع أن يحتمل نفسه؟ وإنّما هو متّضعٌ بالحقيقة ذاك الذي يحتمل تعبير ومذمّة غيره، ولا يُنقصُ حبه له.

- شاهدتُ غروساً كثيرةً ومختلفةً من الفضائل، قد غرسها أناسٌ في العالم كانوا يسقونها من قناة مياه المجد الباطل الفاسدة، ويحرثونها بحبّ الظهور، ويسمّدونها بالمدح. فعندما نُقلتُ

إلى أرضٍ صحراءَ برّيةٍ وغيرِ مَرَوِيَّةٍ بمياهِ المجدِ الباطلِ الفاسدةِ، يَبَسَتْ حَالًا. لأنَّ غروسَ السَّقِي لا تُعطي ثمرًا إذا عُرِسَتْ في فُلواتٍ قاسيةٍ مُجَدِّبةٍ.

- المعجَبُ بنفسه هو مؤمَّنٌ عابِدٌ للأصنامِ، إذ إنَّه يُجِلُّ اللهَ في الظَّاهرِ وهو يريدُ أن يُرضِيَ الناسَ لا اللهَ.

- عاتبَ شيخٌ حكيمٌ أحدَ الإخوةِ عتابًا روحياً، فجاوبه ذلك الأُخُ متعامياً: يا أبانا اغفر لي، أنا لستُ متكبرًا. فقال له الشيخُ الحكيم: يا ولدي، وأيُّ برهانٍ لكبريائك تعطيه لنا أظهرُ من هذا.. من قولك أنا لستُ متكبرًا! إنَّ من تكون هذه حالهم، عليهم بالطاعة جدًّا.

هـ - في الإيمان والمثابرة:

- الإيمانُ هو جناح الصلّاة. وبدونه تعود الصلّاة إلى حضن الإنسان ثانيةً.

- ذو الإيمان الحقّ ليس هو الذي يفكر أن كلَّ شيءٍ ممكنٌ لدى الله، بل الذي يرى وجوبَ قبولِ كلِّ شيءٍ من الله.

- الإيمانُ يمهدُّ الطريقَ لنوالِ ما لم تكن ننتظره أو نرجوه، واللصُّ أثبت ذلك على الصليب.

- الإيمانُ أبوه العملُ وأمّه القلبُ الصادقُ. فالأوّلُ بينيه والثاني يجعله لا شكّ فيه.

و - في انعدام الحسّ:

- عدم الحسّ وبرودة النّفس في الصلّاة هو بسبب زوال الخوف من النّفس، ومن كثرة التّواني والكسل. ويؤوّل بالإنسان إلى نسيان خطاياهم وموت همّته من جهة الصلّاة، ويبدّد الخشوع.

ومن يتأصّل في برودة النّفس وبلادة الحسّ، تجدّه في كلامه يقاومُ نفسه: فكأعمى يعلمُ غيره ويخاطبُ الناسَ عن الصّوم وإمساك البطن، ويجاهد في أكل كلِّ ما يقابله. يقرأ في المحاكمة والدينونة الرهيبة، ولا يكفّ عن الضّحك. يحثُّ الناسَ على اجتنابِ الكبرياء، ويتكبر هو بتعليمه. يتكلّم عن أصول السّهر، وفي الحال يغوص هو في نوم عميق. يمدح الصلّاة، ويهرب منها كهاربٍ من السّوط. يطوّب الطّاعة، وهو أوّل العاصين. إذا شبع ندم، وبعد قليل يقوم ليأكل. يعلمُ فضلَ الوداعة، ويغتاظ في أثناء تعليمه.

هؤلاء هم الذين ماتت نفوسهم وعقولهم قبل أن تموت أجسادهم.

هؤلاء إذا وقفوا في الصلاة، صارت قلوبهم كحجرٍ لا يؤثر فيها سيف الكلمة ذو
الحدّين.

ز- في الدّموع:

- إن كانت المعموديّة قد طهرتنا من الخطيئة المتوارثة فينا من آدم، فالدموع هي تجديد لقوة
تطهير المعموديّة، لغسل الخطايا التي عملناها في أنفسنا.
المعموديّة التي أخذناها أطفالاً قد دنسناها كلّها. والعينُ الباكية هي جرنٌ دائمٌ
لمعموديّة التوبة والتجديد.

لو لم يهبنا الله نعمة الدّموع، لتعدّر خلاصُ الكثيرين.

- الكنزُ المستورُ تصعب سرّته، أمّا الظاهر فهو عرضةٌ للسلب والنهب. هكذا الدّموع،
فالبكاء في الخفاء يبقى ويدوم، أمّا الظاهر فهو عرضةٌ للضياع.

- يا أحبائي، الله لا يسرُّ ببيئتنا ووجع قلبنا، بل هو يريد أن نفرح معه دائماً ولا أحد ينزع
فرحنا منا. فهو لم يخلق آدم باكياً، ولا جعل البكاء من طبيعتنا بعد القيامة، وإنما طوب
الباكين الآن، لأنّ البكاء يغسلُ جرحَ الخطيئة ويجفّفه.

- إنّ النفسَ وقتَ خروجها من العالم لا تجد ما يعزّيها ويشجّعها إلا ما قدّمته من التوبة
والدموع.

ح- في الصّوم:

- إذا فسّونا قليلاً على بطوننا تذلت قلوبنا وانغلقت أفواهنا. وإذا لذذناها بالماكل، فرحت
ومرحت عقولنا وانسابت ألسنتنا.

- الصوم هو غصب الطبيعة وتكليفها بمراد النفس، وقطع تلذذ الفم وحرمان الجسد من
الحرارة.

- فتح شيطان شره البطن فمه وقال: إنّ ابني البكر هو خادم الزنا، وأخوه هو قساوة القلب،
وثالثهم كثرة النوم والتلذذ بالفراش. أمّا بناتي فهن الثرثرة والتكثرة وحبّ التزيّن. أمّا آخر
أولادي، فهو قطع الرجاء.